



# العاشرة مجلة

المجلد الثالث، ٢٠١١

مجلة مسجلة لدى المسجل للجرائد في الهند (RNI) برقم KERARA00011  
ومجلة معتمدة لدى جامعة كيرلا، الهند



قسم العربية، كلية الجامعة، تروناتيرم، كيرلا، الهند، 695034

## «طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد» لعبد الرحمن الكواكبي: مطالعة خاصة في حقبة ربيع العرب

عبد الجليل م.

أستاذ مساعد، قسم العربية، كلية الفاروق، كاليفورنيا، كيرلا، الهند

هذه محاولة بسيرة لمطالعة خاصة عن "طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد" لعبد الرحمن الكواكبي في آونة الثورات العربية الراهنة. وهي انتفاضة شعبية اندلعت أحاديثها من سنة ٢٠١٠ بأسباب متعددة، والتي بدأت بتونس من محمد البوعزيزي الذي قام بإضرام النار في جسده تعبيراً عن غضبه على بطالته واستبداد النظام الحاكم وانتهت إلى سقوط النظام الحاكم بمغادرة زين العابدين بن علي ، وأخذت بعدها المنطقة العربية تمور من شرقها إلى غربها بانتفاضات شعبية سميت بـ"ربيع العرب" مطالبة إنتهاء الاستبداد والعدالة الاجتماعية وإنهاء تفاقم الفساد في النظام الحاكم وحرية التعبير وعدم البطالة وحقوق المواطنة والمساواة في الفرص .. الخ، هذه هي مطالعة تقويمية لهذا الكتاب في آونة "الربيع العربي" والذي يتناول الاستبداد ومصارعه طبائعه ومصارعه بأصالة وحداثة، وقد مضى قرن واحد بعد صدوره.

### نبذة عن حياة الشيخ عبد الرحمن الكواكبي

هو عبد الرحمن بن أحمد الكواكبي، علامة سوريا مفكراً ومؤلفاً ومحامياً وفقيهاً شهيراً ومجدداً شهيداً، ولد في سنة ١٨٤٩ في مدينة حلب، والده هو أحمد بهاني بن محمد بن مسعود الكواكبي ، لأرومة عريقة لها شأن كبير في سوريا والدته السيدة عفيفة بنت مسعود آل نقيب وهي ابنة مقنٍي أنطاكيَّة في سوريا، وتعلم في مدينة حلب التي كانت منتجع العلماء آنذاك ودرس من المدرسة الكواكبية دروس الشريعة والأدب وعلوم الطبيعة والرياضيات وكان والده مدرساً هناك مع نفر من كبار العلماء في حلب، ولم يكتف الكواكبي بالمعلومات المدرسية فقد اتسعت آفاقه الفكرية أيضاً بالاطلاع على كنوز المكتبة الكواكبية التي تحتوي على تراث هائل من الكتب والمخطوطات، واستطاع أن يطلع على علوم السياسة والمجتمع والتاريخ والفلسفة وغيرها من العلوم، وبدأ الكواكبي حياته محرراً في جريدة "الفرات" وكان جريدة رسمية للحكومة، وعرف بمقالاته التي تفضح فساد الولاة، وترك "الفرات" لفهم أن الصحف الرسمية لم تكن سوى معدات لقوة الحاكمة، وأنشأ صحفة "الشهباء" ولكنها لم تستمر هذه الصحيفة طويلاً إذ لم تستطع السلطة تحمل جرأته في النقد، فالحكومة حيث يقول الكواكبي في هذا الشأن: "تحاف من القلم خوفها من النار" ، وتتابع جهاده الصحفي ضد الاستبداد فأصدر عام ١٨٧٩ باسم صديق آخر جريدة «الاعتدال» سار فيها على نهج «الشهباء» لكنها لم تستمر طويلاً فتوقفت عن الصدور، بعد أن تعطلت صحفتها «الشهباء» و«الاعتدال» انكبَ على دراسة الحقوق حتى برع فيها، وعيَّن عضواً في لجنة المالية والمعارف العمومية في حلب، والأشغال العامة (النافعة) ثم عضواً فخرياً في لجنة امتحان المحامين للمدينة، وبعد أن أحس أن السلطة المستبدة تعرقل أحلامه وأمانيه، انصرف إلى العمل بعيداً عنها، فاتخذ مكتباً للمحاماة في حي الفرافرة أحدى أحياء مدينة حلب قريباً من بيته، وكان يستقبل فيه الجميع من سائر الفئات ويُساعدهم ويحصل حقوق المتظلمين عند الجهات القضائية العليا ويُسعى إلى مساعدتهم، وقد كان يؤدي عمله في معظم الأحيان دون أي مقابل مادي، حتى اشتهر في جميع أنحاء حلب بلقب "أبي الضعفاء".

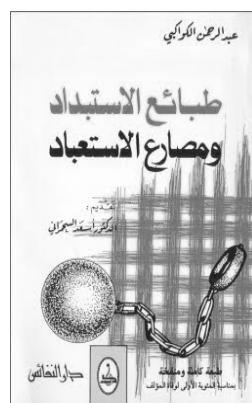


<sup>١</sup>. إشارة إلى عنوان كتاب محمد عمارة (عبد الرحمن الكواكبي : شهيد الحرية ومجدد الإسلام)

واستمر الكواكبى صقل يرعاه بكتاباته الجياشة ضد السلطة التي كانت في نظره تمثل الاستبداد، وبذلك عانى أشد الآيذاءات من السلطة العثمانية، وقد أوصلوه مرة الى منصة الاعدام في محكمة حلب ثم برع منها بعد معاناة حياة سجن قاسية، واضطرب الكواكبى الى التجوال في كثير من البلدان مثل الهند والصين وسواحل شرق آسيا وسواحل أفريقيا والى مصر حيث لم تكن تحت السيطرة المباشرة للسلطان عبد الحميد، وذاع صيته في القاهرة وتتلمذ على يديه الكثيرون وكان واحداً من أشهر العلماء أثناء إقامته في القاهرة قام الكواكبى برحلات عديدة للدول العربية والإسلامية لتفقه أزمات المسلمين الراهنة وحلوها، وأمضى الكواكبى حياته مصلحاً وداعياً إلى النهوض والتقدم بالأمة العربية وقد شكل النوادي الإصلاحية والجمعيات الخيرية التي تقوم بتوعية الناس وقد دعا المسلمين لتحرير عقولهم من الخرافات ودعا إلى إقامة خلافة عربية على أنماط الخلافة التركية وطالب العرب بالثورة على الأتراك وقد انتقد نقداً مرا على الحكومة التركية المستبدة مسؤولية الرعية<sup>١</sup>. وها يقول الدكتور محمد عمارة: 'كان الكواكبى قومياً عربياً لكنه لا تنزعز قوميته وعروبه عن دائرة الجامعة الإسلامية (Pan Islamism) وكان مصلحاً إسلامياً يعمل لتجديد الإسلام كي تتجدد به دنيا المسلمين'، وقد ترك الكواكبى أثراً ضخماً لا تزال غرة في جبين التاريخ ، ومنها، طبائع الاستبداد' و'أم القرى' و'العظمة لله' و'صحائف قريش' و'أمراض المسلمين والأدوية الشافية لها' و'الأنساب' ولا تزال مؤلفات عبد الرحمن الكواكبى مرجعاً هاماً لكل باحث، وتوفي في القاهرة متاثراً بسم دس له في فنجان القهوة ١٩٠٢ حيث دفن فيها<sup>٢</sup>.

#### طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد : مطالعة من جديد

هذه محاولة لمطالعة عصرية لكتاب الذي مضى قرن واحد بعد صدوره وقد توفي مؤلفه بسنة ١٩٠٦م، ليرى هل هناك فرق بين طغاة الغابر وطغاة الحاضر؟ وما دام الاستبداد عرقلة كبيرة أمام تحقیقات الشعب وأعمالها ينبغي علينا تحليل الاستبداد وخصائصه وكيفية التخلص منه، وأن لمطالعة هذا الكتاب من جديد أهمية بالغة لما أن الثورات ضد ظاهرة الاستبداد مستمرة في كثير البلدان خاصة في الشرق الأوسط والمغرب العربي. وإنتمدت على نسخة إلكترونية لكتاب 'طبائع الاستبداد' وهي نسخة تحتوي على مقدمة للدكتور أسعد السحراني، واعتمدت أيضاً على ملفات محمد الحداد في موقع أهل القرآن<sup>٣</sup> بخصوص قراءة طبائع الاستبداد. أن الصفحة الرئيسية تحمل بعد إسم الكتاب كلمات كما تلى:



وهي كلمة حق وصرخة في واد - إن ذهبت اليوم مع الريح - لقد تذهب غداً بالأوتاد

أن الطبع الأول لهذا الكتاب لم يكن يحمل إسمه الأصلي بل كان الاسم في الغلاف 'الرحلة ث' يعني إسم مستعار، وهذا يدل على أنه لم يتغير شهرته الشخصية بل اعتبر بث أفكاره بين العامة، وكان يخاف أنه إذا سمي باسمه ستمنعه الحكومة المستبدة وتقف عرقلة أمام نشر هذه الأفكار التي لا تزال رعدة للمستبددين. نرى الكواكبى في هذا الكتاب يتحدث بجرأة وصراحة في عصر يسوده الاستبداد. والكتاب ليس نقداً للمستبددين والسلطات المستبدة بل فيه تشخيص أزمات الشعوب بواقعها المؤلم وإيقاظ النيام للشعوب حتى يثوروا على كلّ مستبدٍ غاشم.

<sup>١</sup>. راجع عبد الرحمن الكواكبى : شهيد الحرية ومجد الإسلام لمحمد عمارة ، دار الشروق بالقاهرة (٢٠٠٧) وويكيبيديا

<sup>٢</sup>. عبد الرحمن الكواكبى : شهيد الحرية ومجد الإسلام لمحمد عمارة ، دار الشروق بالقاهرة (٢٠٠٧)

<sup>٣</sup>. اعتمدت في كتابة هذه النبذة على ما كتب عن الكواكبى في موقع كثيرة على الانترنت، وعلى كتاب حفيده القاضي سعد زغلول الكواكبى المعونون: عبد الرحمن الكواكبى السيرة الذاتية

<http://www.ahl-alquran.com>

## ماهية الاستبداد وفق منظور الكواكبي

و قبل الخوض إلى مناقشة الأجزاء القادمة تحت الاستبداد، علينا أن نقوم بتحليل ماهية الاستبداد وفق منظور الكواكبي، وقد ناقش الكواكبي الأجزاء المتعلقة بالاستبداد تحت العناوين التالية: الاستبداد والدين، والاستبداد والعلم، والاستبداد والمجده، والاستبداد والمال، والاستبداد والأخلاق، والاستبداد والتربية، والاستبداد والترقي وكيفية التخلص من الاستبداد. ويقول الكواكبي : الاستبداد لغة هو: غرور المرء برأيه، والأنفة عن قبول التصيحة، أو الاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة ويراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات خاصة؛ لأنها أعظم مظاهر أضراره التي جعلت الإنسان أشقى نوبي الحياة... كما رأينا فالقصد بالاستبداد هو الجانب السياسي منه فقط، وليس غيره، كالمستبد الاجتماعي مثلًا... الاستبداد في اصطلاح السياسيين هو: تصرف فرد أو جموع قوم بالمشينة وبلا خوف تبعه... ويستعملون في مقام صفة (مستبد) كلمات: جبار، وطاغية، وحاكم بأمره، وحاكم مطلق. وفي مقابلة (حكومة مستبدة) كلمات: عادلة، ومسؤولة، ومقيدة، ودستورية. ويستعملون في مقام وصف الرعية (المستبد عليهم) كلمات: أسرى، و مستصغرين، وبؤساء، ومستبدين، وفي مقابلتها: أحرار، وأباء، وأحياء، وأعزاء... هذا تعريف الاستبداد بأسلوب ذكر المرادفات والمقابلات، وأمامًا تعريفه بالوصف فهو: أن الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان فعلاً أو حكماً، التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين<sup>١</sup>. ومن هنا يحاول الكواكبي لسرد صفات الاستبداد حيث يقول: ويكتفي هنا الإشارة إلى أن صفة الاستبداد، كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة أو الوراثة<sup>٢</sup>. ويورد الشيخ محمد الحداد أمثلة بهذا الصدد من التاريخ القريب في موقع أهل القرآن في إنترنت حيث يقول : لأعطي أمثلة قريبة عن هكذا مستبدین، فصدام حسين في العراق مثل للحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة، وبشار الأسد في سوريا مثل للحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالوراثة، والمثالين لحكومات تعتبر نفسها مقيدة وفق شرعة الدستور، ولكن دستورها طوع يد الحاكم، يغير به حسب هواه<sup>٣</sup>.

تشمل أيضًا الحاكم الفرد المقيد المنتخب متى كان غير مسؤول<sup>٤</sup> وخير مثل لهذا كان الطاغية حسني مبارك ويقول : وتشمل حكومة الجمع ولو منتخبًا؛ لأن الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد، وإنما قد يعدله الاختلاف نوعاً، وقد يكون عند الاتفاق أضرار من استبداد الفرد<sup>٥</sup>. وهناك حكومة نوري المالكي في جمهورية العراق مثلاً ويقول: ويشمل أيضًا الحكومة الدستورية المفرقة فيها بالكلية قوة التشريع عن قوة التنفيذ وعن قوة المراقبة؛ لأن الاستبداد لا يرتفع ما لم يكن هناك ارتباط في المسؤولية، فيكون المتفقون مسؤولين لدى المُشرِّعين<sup>٦</sup> ويقول أيضًا: وأشار مراتب الاستبداد التي يُتعود بها من الشيطان هي حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية<sup>٧</sup> واقرب مثال على ذلك هو حكم العاهل المغربي الملك محمد السادس، والملك عبد الله الثاني بن الحسين للمملكة الأردنية الهاشمية، ولنا أن نقول كلما قلَّ وصفٌ من هذه الأوصاف<sup>٨</sup> ... إنَّ الحكومة من أي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد؛ ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والاحتساب الذي لا تسامح فيه<sup>٩</sup>... ومن الأمور المقررة طبيعة وتاريخاً أنه، ما من حكومة

<sup>١</sup>. طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لعبد الرحمن الكواكبي - طبعة بيisan، بيروت لبنان

<sup>٢</sup>. نفس المصدر

<sup>٣</sup>. http://www.ahl-alquran.com

<sup>٤</sup>. طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص: ٤

<sup>٥</sup>. نفس المصدر، ص: ٥

<sup>٦</sup>. نفس المصدر، ص: ١٠

<sup>٧</sup>. نفس المصدر، ص: ١٠

<sup>٨</sup>. نفس المصدر، ص: ٤

<sup>٩</sup>. نفس المصدر، ص: ١٤

عادلة تؤمن المسؤولية والمواخذه بسبب غفلة الأمة أو الممكّن من إغفالها إلا وتسارع إلى التّلّبس بصفة الاستبداد، وبعد أن تتمكّن فيه لا تتركه وفي خدمتها إحدى الوسيطتين العظيمتين: جهالة الأمة، والجنود المنظمة<sup>١</sup>.

وهما أكبر مصائب الأمم وأهمّ معانب الإنسانية، وقد تخلّصت الأمم المتقدمة - نوعاً ما - من الجهالة، ولكن؛ بلّيت بشدة الجنديّة الجبرية العموميّة<sup>٢</sup> ولم يشهد المؤلّف سلاسل الاستعمار بعد الحرب العالمية الأولى يعني استبداد أمة على أمة. ويقول: لا يُعهد في تاريخ الحكومات المدنيّة استمرار حكومة مسؤولة مدة أكثر من نصف قرن إلى غاية قرن ونصف، وما شدّ من ذلك سوى الحكومة الحاضرة في إنكلترا<sup>٣</sup>... نعم؛ على الرّعية أن تعرف مقامها: هل خلقت خادمة لحاكمها، تطيعه إنْ عدل أو جار، وخلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل أو اعتساف؟ أم هي جاءت به ليخدمها لا يستخدمها؟.. والرّعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها؛ لتأمن من بطشه، فإن شمخ هزّت به الزّمام وإن صال ربطه<sup>٤</sup> وهذه من أخير الوصايا للأمة المستنحضة من قبل المؤلّف، والقول ما قاله أبو القاسم الشابي في هذا الصدد:

فلا بد أن يستجيب القدر  
إذا الشعب يوماً أراد الحياة  
ولا بد للقيد أن ينكسر  
الاستبداد والدين

وهنا الخصّ ما قاله المؤلّف بهذا الصدد بسرد بعض القطعات المثالية حيث يقول : تصافرت آراء أكثر العلماء النّاظرين في التاريخ الطبيعي للأديان، على أنَّ الاستبداد السياسي مُتوأّد من الاستبداد الديني<sup>٥</sup>... وإنما نبني نتيجتنا على مقدّمات ما نشاهد عليه المسلمين منذ قرون إلى الآن من استعانة مُستبديّهم بالدين<sup>٦</sup>... وأعتقد أن أكثر الأديان الأخرى تكون الشرارة بين رجالات دينها أو كهنتها مع المستبد، وليس الدين كنص دون مطبقين له حسب فهمهم الواقتي والمكاني، له مشاركة لوحده مع المستبد، بل هم أولئك الرجال الذين أخذوا على عاتقهم تفسير النصّ الديني حسب مزاجهم<sup>٧</sup>... ويقرّرون أنَّ هذا التّشاكل بين القوّتين ينجرُّ بعوام البشر. وهم السواد الأعظم - إلى نقطة أن يلتّبس عليهم الفرق بين الإله المعبد بحقّ وبين المستبد المطاع بالقهرا، فيختلطان في مضائق أذهانهم من حيث التّشابه في استحقاق مزيد التّعظيم، والرّفع عن السؤال وعدم المواجهة على الأفعال<sup>٨</sup>... (الفعل المطلق)، والحاكم بأمره، وبين (لا يسأل عما يفعل) وغير مسؤول، وبين(النعم) وولي النعم، وبين (جل شأنه) وجليل الشأن. بناءً عليه؛ يعظّمون الجبارية تعظيمهم لله، ويزيدون تعظيمهم على التّعظيم لله<sup>٩</sup>... حتّى يُقال: إنَّه ما من مستبدٌ سياسيٌ إلى الآن إلا ويَتّخذ له صفة قدسيّة يشارك بها الله، أو تعطيه مقام ذي علاقة مع الله<sup>١٠</sup>. ونظن أن هذه قراءة واقعية للمستبدّين في الأمم العرب. ما أشبه طغاة الغابر وطغاة الحاضر!

#### الاستبداد وكيفية التخلص منه

وقد أطّل الكواكب في هذا المبحث، ولكنّي أسرد بعض العينات التي تعين على بصيرة الكواكب في هذا الصدد حيث يقول: أعني ببحث السعي في رفع الاستبداد، فاقول: الأمة التي لا يشعر كلّها أو أكثرها بالظلم الاستبداد لا تستحق الحرية،

١. نفس المصدر، ص: ١٨.
٢. نفس المصدر، ص: ١٨.
٣. نفس المصدر، ص: ١٩.
٤. نفس المصدر، ص: ٢٤.
٥. نفس المصدر، ص: ٢٨.
٦. نفس المصدر، ص: ٣٦.
٧. نفس المصدر، ص: ٤٢.
٨. نفس المصدر، ص: ٦٦.
٩. نفس المصدر، ص: ٦٨.
١٠. نفس المصدر، ص: ٧٠.

والاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج، ويجب قبل مقاومة الاستبداد، تهيئة ما يُستبدل به الاستبداد<sup>١</sup>. فإذا وُجد في الأمة الميئنة من تدفعه شهامته للأخذ بيدها والنهوض بها فعليه أولاً: أن يبيث فيها الحياة وهي العلم؛ أي علمها بأن حالتها سيئة، وإنما بالإمكان تبديلها بخير منها، فإذا هي علمت بطريقه من الأحاد إلى العشرات، إلى إلى...، حتى يشمل أكثر الأمة، وينتهي بالتحمّس ويبلغ بلسان حالها إلى منزلة قول الحكيم المعرّى:

إذا لم تقم بالعدل فينا حكومة فحن على تغييرها فداء<sup>٢</sup>

ومني قاعدة أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة، إنما يقاوم بالحكمة والتدرّج هو: أن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقى الأمة في الإدراك والإحساس، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحمّس. ثم إن اقتناع الفكر العام وإذاعاته إلى غير مأله، لا يتأتى إلا في زمن طويل، لأن العوام مهما ترقوا في الإدراك لا يسمحون باستبدال القشريرة بالعافية إلا بعد التّروي المديد<sup>٣</sup>... وخلاصة البحث أنه يلزم أولاً تنبية حس الأمة بالآلام الاستبداد، ثم يلزم حملها على البحث في القواعد الأساسية للسياسة المناسبة لها، بحيث يشغل ذلك أفكار كل طبقاتها، والأولى أن يبقى ذلك تحت مخض العقول سنين، بل عشرات السنين حتى ينضج تماماً، وحتى يحصل ظهور التلهف الحقيقي على نوال الحرية في الطبقات العليا، والتمّنى في الطبقات السفلية، والحدّر كل الحذر من أن يشعر المستبد بالخطر، فيأخذ بالحدّر الشديد<sup>٤</sup>.

### الختام

وثمة عناوين متعددة في نص الكتاب، الاستبداد والترقي الاستبداد والعلم والاستبداد والمال والاستبداد والانسان والاستبداد والأخلاق والاستبداد وال التربية والاستبداد والترقي... وغيرها، ولا تسع القراءات هنا لسردها وتحليلها ولذلك أكتفيت بعنوانين: الاستبداد وكيفية التخلص منه وفي الختام سأقول بأن أفكاره تناسب تماماً مع القطعة الشعرية التي قالها وليد الأعظمي في الزوابع حيث يقول:

تاریخهم کله خزی وآفشار	إن الطغاة ينابيع تفیض أذى
دم التحرر في أحشاء فوار	وما دروا أن هذا الشعب منتبه
صدر الحليم ولب المرء يحتار	سلب ونهب وإعانت يضيق به
حتى ينال الذي يرضى ويختار	لن يسكت الشعب عن حق له أبداً
والظلم لا شك في آخره ينهار	زال الطغاة كما زالت مفاسدهم

إلى أن قال:

وأصرّ أخيراً بأن أفكاره تناسب مع التي قالها في مستهل الكتاب "إن ذهبت اليوم مع الريح : لقد تذهب غداً بالأوتاد".

### المراجع

- عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد، طبعة بيisan (٢٠٠١) •
- عبد الرحمن الكواكبي : شهيد الحرية ومجدد الإسلام لمحمد عمارة ، دار الشروق بالقاهرة (٢٠٠٧) •
- عبد الرحمن الكواكبي – السيرة الذاتية لسعد زغلول الكواكبي، مكتبة بيisan – (١٩٩٧)، بيروت - لبنان •
- http://www.ahl-alquran.com •
- http://www.al-ayyam.ps •
- http://www.alittihad.ae •
- http://www.alwatan.com.sa •
- http://www.alarabiya.net •

<sup>١</sup>. نفس المصدر، ص: ٩٢.

<sup>٢</sup>. نفس المصدر، ص: ٩٣.

<sup>٣</sup>. نفس المصدر، ص: ٩٦.

<sup>٤</sup>. نفس المصدر، ص: ٩٦.